تذوّق ابن قتيبة للنظم القرآنى

أ . د . منير سلطان*

فى التذوق الفنى :

العمل الفنى[1] ، هو الشكل الذى اختاره الفنان وسيلةً للتعبير عن الحياة ، وتكتمل دورة نموه بوصوله إلى « الأحياء » ليتذوقوه .. ، وهو حين يعبّر عن الحياة ، يصوغ آراءه فى أفكار مرتديةً الثوب الذى يروق صانع هذا العمل الفنى ، ويجيدُ الأداء عن طريقه ، ليسهِّلَ وصول أفكاره إلى المخاطبين ، فقد يختار لها الكلمةَ وسيلةً ، أو النَّغْمة ، أو الحركة ، أو الكتلة ، أو الصوت ، أو اللون ، ومن الكلمة يكون الأدب ، ومن النّغمة تكون الموسيقا ، ومن الحركة يكون الرقص ، ومن الكتلة يكون النحت ، ومن الصوت يكون الغناء ، ومن اللون يكون الرسم .. ، كلها فنون تتبادل فيما بينها الأخذَ والعطاء ، والتأثير والتأثر ، وعليها جميعا ، نُطلق مصطلح « **العمل الفنى** » .

والتذوق الفنى هو الاستجابة المباشرة للجمال فى العمل الفنى ، والتواصل القائم بين ما يقوله الفنان وبين المخاطب ، فيحكم المتذوق مباشرة بالجودة أو الرداءة على ما يتذوقه من عمل ، وهو انطباعى بعيد عن الموضوعية الصارمة ، تأثُّرى يتغير بتغير الظروف المحيطة ثقافيًا واجتماعيًا .

(*) أستاذ النقد والبلاغة المساعد بجامعتى قطر وعين شمس .

(١) ثمة دراساتٌ نقدية أفردت للتذوق حديثا خاصا ، منها : **أصول النقد الأدبى** ، لأحمد الشايب ، ص ١١٩ ، ط ٦ . **والأسس الجمالية فى النقد العربى** ، د . عز الدين إسماعيل ، ص ٧٤ ، ط دار الفكر العربى . **والنقد الأدبى الحديث** ، **د . أحمد كمال زكى ، ص ٣٩ ، ط الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢ م . والأسس الفنية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة** ، د . مصطفى سويف ، ص ١٦١ ، ط دار المعارف ١٩٦٩ م . **وألوان من التذوق الأدبى** ، د . مصطفى الجوينى ، ص ٥٩ ، ط منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٢ م . **وتاريخ النقد الأدبى** ، د . محمد زغلول سلام ، ١/١٢ ، ط دار المعارف ١٩٦٤ م . **وفى فلسفة النقد** . د . عبد الحميد يونس ، ص ١٨٣ ، ط دار المعرفة . **وفلسفة الجمال فى الفكر المعاصر** ، د . محمد زكى العشماوى ، ص ١٤١ ، ط دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٠ م . عدا دارسات النقاد والبلاغيين القدماء المبثوثة فى كتب النقد والبلاغة .

وعادة ما يكون انعكاسا لموقف المتذوق من طبيعة الأعمال الفنية التى يعايشها ويحكم عليها بذوقه .

وحينا يصاب المتذوق بالميل إلى التقليد ، أو التعصب ، أو بنقص الخبرة ، أو يكون مسايرًا للشعور الجمعى تِجَاه عمل فنى معين ، أو لديه موانع شخصية من الْأَلَفَةِ ، أو غرابة ، أو حسد أو مرض عضوى أو نفسى ، يقع أسيرا لهذه المعوقات ، التى لا تنصف العمل الفنى ، ولا تسمح لمؤثراته الجمالية أن تتخلل ذاته ، فيكون حكمه مُغَلَّفًا بستائر العجز عن التواصل مع العمل الفنى .

ومن الغريب أن هذه المعوقات تكاد تلازم العملية التذوقية ، على اختلافٍ فى الدرجات ، وتباين فى الأثر ، ملازمة العناصر المكونة للقدرة على التذوق ، ومن العسير حَجْبُ هذه المعوقات عن التذوق ؛ لأنه ذاتى انطباعى .

والفرق بين تذوق العمل الفنى البشرى ، وتذوق النظم القرآنى الإلهى ، أن الأول نتذوقه ونحن نتحرش به ، نرضى عنه ، أو نغضب منه ، مدركين أن هناك الأفضل دائما .

أما النظم القرآنى ، فنتذوقه مؤمنين أنه : « من اللّه العزيز الحكيم »[٢] ، وأنه : ﴿ لا تبديل لكلمات اللّه ﴾[٣] ، وأن تذوقنا له محكوم بقدراتنا الحسية ، محكوم بعقولنا البشرية ، بثقافاتنا المحدودة ، بانتمائنا الفكرى المَتَحَوِّل ، مقترنٌ برهافة حسّنا ، ونضوج خيالنا ، وتمكُّنِنَا من علوم اللغة وعلوم الدين ، وسائر العلوم المُعِينة .

تذوق النظم القرآنى ذاتى شخص ، يقوم على ترجيح معنى على معنى ، لأسباب مرتبطة بالمتذوق نفسه ، وخصائصه ومكوناته الحسية والثقافية ، ولكنه مرتبط بالشرعية الدينية ، والصحة اللغوية .

وتذوق ابن قتيبة وأضرابه للنظم القرآنى ، نوع من التذوق البصير بطبيعة الفن الذى يتصدى له ، وهو تذوق محكوم بالانتماء إلى منهج معين يرتضيه المتذوق ويعرف به ، بل ويدافع عنه .

وابن قتيبة من أصحاب الحديث ، تتملذ لطائفة من أعلام عصره من أشهرهم : أحمد بن سعيد اللحيانى ، صاحب الفقيه أبى عبيد القاسم بن سلام ، وكذا أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم المعروف بابن راهويه (ت ٢٣٨ هـ) ، وهو إمام جليل فى الفقه والحديث ، وحرملة

---

(٢) سورة الأحقاف : ٤٦ / ٢ .
(٣) سورة يونس : ١٠ / ٦٤ .

بن يحيى التجيبى صاحب الشافعى (ت ٢٤٣ هـ) ، والقاضى يحيى بن أكثم (ت ٢٤٢ هـ) ، وغيرهم فى الفقه والحديث . ومن اللغويين ، تتلمذ لأبى عبد اللّه محمد بن سلّام الجمحى (ت ٢٣١ هـ) . وأبى إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادى (ت ٢٤٩ هـ) ، تلميذ سيبويه ، وأبى عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٦ هـ) ، والأصمعى (ت ٢١٦ هـ) ، وأبى حاتم السجستانى اللغوى (ت ٢٤٨ هـ) ، والرياشى النحوى (ت ٢٥٧ هـ) تلميذ الأصمعى ، وغيرهم من رجالات اللغة والأدب(٤) .

وآثرت أن يكون درسى لتذوق ابن قتيبة من خلال كتاب من أشهر ما صَنَّفَ حول النظم القرآنى ، وهو « **تأويل مشكل القرآن** » ، ليكون بحثى مُحَدَّدًا .

أولا : كتاب « تأويل مشكل القرآن الكريم »(٥) :

هال ابن قتيبة ما رأى من كثرة الشكوك التى تثار حول القرآن الكريم ، والمطاعن التى تُصَدَّرُ نحوه ، وخشى أن تكون عاقبة أمرها خُسْرا وبوارا للأغمار والأحداث ، فانتدب نفسه لدرئها .

فبدأ كتابه بالحكاية عن الطاعنين ، فسرد مطاعنهم على اختلاف مزاعمها ، ثم عقد أبوابا للرد عليهم فى وجه القراءات وما ادَّعُوه على القرآن من اللحن ، وما نحلوه من التناقض والاختلاف فى آيِهِ ، وما قالوه فى المتشابه . ثم ذكر بعد ذلك أبواب المجاز لأن أكثر غلط المتأولين كان من جهته ، وبسببه تشعبت الطرق ، واختلفت النِّحَلُ ، ثم أفرد بابا فى تأويل الحروف التى ادّعى على القرآن بها الاستحالة ، وفساد النظم ، فتحدث عن الحروف المقطعة ، واختلاف المفسرين فيها ، ثم خلص من الكلام عليها إلى الكلام على مشكل سور القرآن ، فيذكر ما فى السُّور منه ثم يُؤَوّلهُ ، ولكنه لم يرتب السُّور حسب ترتيبها المعروف فى المصحف ، بل ذكرها حَسبما عَنَّ له من المشكل فيها ، وقد لا يستوفى الكلام على المشكل فى السور التى يذكرها ، فيعيد ذكرها مرة أخرى أو مرات ، مثلما فعل فى سورة « البقرة »

---

(٤) انظر مقدمة تحقيق كتاب « تأويل مشكل القرآن » للسيد أحمد صقر ، ط المكتبة العلمية ، الطبعة الثالثة ١٩٨١ م ، من ص ١ - ٨٧ ، وما بهامشه من مصادر ، و « ابن قتيبة » للدكتور إسحاق موسى الحسينى ، ترجمة هاشم ياغى ، ط المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ص ٣٠١ . ومقدمة « غريب القرآن » لابن قتيبة ، تحقيق د. عبد اللّه الجبورى ، ط العانى ، بغداد ١٩٧٧ م ، و « ابن قتيبة » للدكتور عبد الحميد سند الجندى ، ط الهيئة المصرية العامة للثقافة ، سلسلة أعلام العرب ، ص ١٥٥ وما بعدها .

(٥) سنعتمد على النسخة التى حققها السيد أحمد صقر ، ط المكتبة العلمية ، المدينة المنورة ، الطبعة الثالثة .

و « الأنعام » و « النحل » و « النساء » ، ثم عقد بابا فى « اللفظ الواحد لمعانى المختلفة » تحدث فيه عن ثمانية وأربعين لفظا من الألفاظ التى جاءت فى القرآن الكريم متحدة المبانى مختلفة المعانى ، كلفظ « القضاء » ولفظ « البلاء » ... الخ ، ثم يذكر بابا فى « تفسير حروف المعانى وما شاكلها من الأفعال التى لا تتصرف » ، تحدث فيه عن أربعة وثلاثين حرفا مثل « لولا » و « لا جرم » و « هلم » ... الخ ، ثم ختم كتابه بباب « دخول بعض حروف الصفات مكان بعض » ، وتحدث فيه عن خمسة عشر حرفا ، مثل « فى » حينما تكون مكان « على » ، و « الباء » مكان « عن » ... الخ .

وقد فرض عليه الهدف من تأليف الكتاب عرضا يتواءم مع طبيعة الموضوع المثار ، فقد كان محكومًا بآراءَ مطروحةً لا مَفَرَّ من عرضها ، مُطَالَبًا بتفنيدها أو التوفيق بينها ، لذا تعرض لطوائف من المخالفين ، منهم المعتزلى والشيعى والمرجئى ، فلزم أن يخاطب كل أناس بما يفحمهم .

وفى غضون هذا عرض لقضايا أسلوبية ذات أهمية بالغة ، فبيّن أن القرآن اتّسم بلون **معجز من الإيجاز** لا يتسنى لغيره أن يحيط بما تحته من معان إلّا بالضرب فى أشكال من الإطالة والإسهاب ، فقد « جمع القرآن الكثير من معانيه فى القليل من لفظه »[٦] ، يقول ابن قتيبة : « فإن شئت أن تعرف ذلك ، فتدبر قوله سبحانه : ﴿ خُذِ العَفْوَ وامُرْ بالعُرْف وأَعْرِض عن الجاهلين ﴾[٧]، كيف جمع له بهذا الكلام كُلَّ خُلُقٍ عظيم ، لأن فى أخذ العفو : صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وإعطاء المانعين ، وفى « الأمر بالعرف » ، تقوى اللّه ، وصلة الأرحاك ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن الحرمات ، وإنما سُمِّىَ هذا وما أشبه « عرفا » و « معروفا » ؛ لأن كل نفس تعرفه ، وكل قلب يطمئن إليه ، وفى الإعراض عن « الجاهلين » : الصبر والحلم وتنزيه النفس عن مماراة السفيه ، ومنازعة اللجوج[٨] .

وبيّن **أن القرآن الكريم لا يُتَرْجَمُ** ، لأن « للعرب المجازات فى الكلام ، ومعناها : طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار ، والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ، ومخاطبة الواحد ومخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص ... وبكل هذه المذاهب نزل

(٦) تأويل مشكل القرآن : ص ٣ .
(٧) سورة الأعراف : ٧ / ١٩٩ .
(٨) تأويل مشكل القرآن : ص ٤ ، ٥ .

القرآن ، ولذلك لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقله إلى شيء من الألسنة[٩] .

وكذلك يشير إلى أن **المتشابه من القرآن**[١٠] **سر من أسرار إعجازه لأنه** « لو كان القرآن كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوى فى معرفته العالم والجاهل ، لبطل التفاضل بين الناس ، وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر »[١١] .

وأن **الشعراء حين يبالغون فى الوصف** لا يُنْسَبُون فيه إلى الإفراط وتجاوز المقدار ، لأن ذلك جائز حسن ، ومثله ما ورد فى القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا لَيُزلِقُونَكَ بأبصارِهم لمَّا سمعوا الذكر ﴾[١٢] ، ويريد أنهم ينظرون إليك بالعداوة نظرا شديدا يكاد يزلقك من شدته ، أى يسقطك[١٣] .

ثانيا : التزام ابن قتيبة بالمنهج اللغوى :

وأقصد بالمنهج اللغوى ، منهج جماعة علماء اللغة الأوائل ، وتلاميذهم من اللغويين والنحاة الذين كانوا يهتمون بصحة الصياغة العربية للجملة ، وسلامتها ومطابقتها لما تداولته العرب من أساليب ، وهم قد اتخذوا لغة القرآن حُجَّة ، وشعر الجاهلية قدوة ، وأقوال السلف هديا ، ولم يستريحوا كثيرا للتجديد والطفرة ، وربطوا بين رسالة الفن ورسالة الحفاظ على لغة الدين الحنيف .

ومن أعلامها أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) ، والخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ) ، وسيبويه (ت ١٨٠ هـ) ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢٠٦ هـ) ، والأصمعى (ت ٢١٦ هـ) ، وابن سلام الجمحى (ت ٢٣١ هـ) ، والمبرد (ت ٢٨٥ هـ) ، والزجاج (ت ٣٣٨ هـ) ، وغيرهم .

وهذا ابن قتيبة يجعل الكلمة لا الجملة أساسا للعبارة ، ويحرص على إثبات أن أسلوب القرآن قد جاء موافقا لمذاهب العرب فى الكلام ، ويحتج بأهل اللغة وأصحاب التفسير ،

---

(٩) تأويل مشكل القرآن : ص ٢١ .

(١٠) يقول : وأصل التشابه : أن يُشْبِهَ اللفظُ فى الظاهر ، والمعنيان مختلفان ... ثم قد يقال لكل ما غمض ودق : متشابه ، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره .. ومثل المتشابه « المشكل » وسمى مشكلا ، لأنه أشكل ، أى دخل فى شكل غيره فأشبهه وشاكله .. ثم قد يقال لما غمض – وإن لم يكن غموضه من هذه الناحية – مشكل . (تأويل مشكل القرآن ص ١٠١ ، ١٠٢) .

(١١) تأويل مشكل القرآن : ص ٨٦ .

(١٢) سورة القلم : ٦٨ / ٥١ .

(١٣) تأويل مشكل القرآن : ص ١٧٠ وما بعدها .

ويحرص على إيضاح معانى الألفاظ ، فالجهل بمعناها ، أو بفروع معناها ، أدى إلى الهجوم على النظم القرآنى .

أ - اللفظ عند ابن قتيبة لا التركيب الفنى أساس تذوق العبارة :

التركيب الفنى عند اللغويين تركيب لغوى يتألف من ألفاظ لا بد أن يتوافر لها الدقة والصحة والسلامة ، والجهل بها يؤدى إلى الجهل بما تركب منها ، وقد يكون للفظ معنًى واحدًا ، أو عدة معان ، أو يقصد به معنى حقيقيا ، أو مجازيا ، أو يتقدم عن موضعه أو يتأخر ، أو يحذف ، أو يتكرر ، أو يخاطب به الواحد خطاب الجميع ، أو الجميع خطاب الواحد ، أو الواحد والجميع خطاب الاثنين ، أو يقصد بلفظ الخصوص معنى العموم ، أو بلفظ العموم معنى الخصوص ، وبكل هذا نزل القرآن الكريم ، وبكل هذا تكلم العرب .

ومن هنا انطلق اللغويون ، انطلقوا من أن « سلامة البنية الأساسية تؤدى بالضرورة إلى سلامة البنية الفنية » ، بغض النظر عمّا فى هذه المقولة من صواب أو خطأ .

ويترتب على هذا أن يكون الفيصل فى الصواب والخطأ ، ما قالته فصحاء العرب لأنهم أصحاب اللغة ، وبلغتهم نزل القرآن الكريم ، وهذا ما أدى إلى ظهور فكرة « مثالية اللغة »[١٤] ، و « اعتبار كل خروج على أنماطها من قبيل الضرورة أو الشذوذ »[١٥] ، وحتى هذه الضرورة التى أبيحت للشعراء - وهم أبلغ من تفاعل مع اللغة - كانت أشبه ما تكون بعملية قياس ، لا يسمح للشاعر المتأخر بالمضى فيه ، إلّا إذا استند على شواهد ومقدمات متواترة فى الشعر القديم[١٦] .

حتى المجاز الذى أطنب فيه ابن قتيبة ، يقول فيه أستاذه الجاحظ : « وليس هذا مما يطرد لنا أن نقيسه ، إنما نقدم على ما أقدموا ، ونحجم عما أحجموا ، ننتهى إلى حيث انتهوا »[١٧] ، ومعنى هذا ، أنه إذا كان العرب « يسمون الرجل جملا ولا يسمونه بعيرا ، ولا يسمون المرأة ناقة ، ويسمون الرجل حمارا ، ولا يسمون المرأة أتانا ، ويسمون المرأة نعجة ولا

---

(١٤) د. عبد الحكيم راضى - نظرية اللغة فى النقد العربى - ط الخانجى بمصر ١٩٨٠ م ، ص ٢٠٢ .

(١٥) د. عبد الحكيم راضى - نظرية اللغة فى النقد العربى - ص ٣٨٩ .

(١٦) د. جابر عصفور - الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى - ط دار المعارف ، ص ١٢٧ ، وقد رجع فى هذا إلى رأى أبى على الفارسى الموجود فى « الخصائص » لابن جنى تحقيق محمد على النجار ، ط دار الكتب ١٩٥٣ - ١٩٥٦ ، ٣/ ٣٠٣ .

(١٧) الجاحظ - الحيوان - تحقيق عبد السلام هارون - الحلبى ١٩٤٨ م ، ٢١٢/١ .

يسمونها شاة »[١٨] ، فحتم على الشاعر المحدث أن يسير على نهجهم ، وألّا يفعل سوى ما فعلوا[١٩] ، فاللغة لا يقاس عليها[٢٠] .

فاحتفاء ابن قتيبة باللفظ نموذج من نماذج انتمائه للمنهج اللغوى ، تراه فى كتابة « المشكل » هذا ، يشرح هدفه قائلا : « وقد بينت ما غمض من معناه لالتباسه بغيره ، واستتار المعانى المختلفة **تحت لفظه** ، وتفسير « المشكل » الذى أُدُّعِيَ على القرآن فساد النظم فيه[٢١] ، والنظم هنا مطابقة اللفظ معناه بما يقتضيه المقام ، وليس إقامة علاقات عضوية بين الألفاظ لتركيب صورة فنية متجانسة ، كما ذهب الجرجانى عبد القاهر (ت ٤٧١ هـ) .

ومثال ذلك ، فى قوله تعالى : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا ، لاتخذناه من لَدُنَّا إن كنا فاعلين ﴾[٢٢] ، يقول ابن قتيبة : قال « قتادة » و « الحسن » : اللهو : المرأة[٢٣] ، وقال « ابن عباس » : هو الولد ، والتفسيران متقاربان ؛ لأن امرأة الرجل لهوه ، وولده لهوه[٢٤] ، ولذلك يقال : امرأة الرجل وولده ريحانتاه ، وأصل اللهو : الجماع ، فكنّى عنه باللهو ، كما كنّى عنه بالسّر ، ثم قيل للمرأة لهو ، لأنها تجامع ، قال امرؤ القيس :

ألا زعمت بَسْبَاسَةُ اليوم أنّنى ... كبرت ، وألّا يحسن اللهو أمثالى

أى : النكاح[٢٥] ويفسر كلمة « المسد » فى قوله تعالى : ﴿ وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد ﴾[٢٦] ، وكلمة « متكأ » فى قوله تعالى : ﴿وأعتدت لهن متكأ ﴾[٢٧] ، ثم يفرد بابا مستقلا بعنوان « باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه »[٢٨] ، وبابًا آخر بعنوان « اللفظ الواحد للمعانى المختلفة »[٢٩] .

---

(١٨) الجاحظ - الحيوان - ٢١٢/١ .

(١٩) د. جابر عصفور : الصورة الفنية ، ص ١٤٣ .

(٢٠) الآمدى : الموازنة : طباعة دار المعارف ، ط ٢ ، ١٩٧٢ ، ت أحمد صقر ، ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢١) تأويل مشكل القرآن : ص ١٠٢ .

(٢٢) سورة الأنبياء : ٧/٢١ .

(٢٣) فى الهامش : فى تفسير الطبرى ٨/٢٧ ، عن عقبه بن أبى حمزة ، قال : شهدت الحسن بمكة ، وجاءه طاووس وعطاء ومجاهد ، فسألوه عن قول الله تبارك وتعالى : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا لا تخذناه ﴾ ، قال الحسن : اللهو : المرأة .. ، عن قتادة : اللهو بلغة أهل اليمن المرأة ص ١٦٣ ، من تأويل المشكل .

(٢٤) فى الهامش : فى اللسان . ١٢٦/٢٠ : « اللهو فى لغة أهل حضر موت : الولد ، وتأويله فى اللغة ، أن الولد لهو الدنيا ، أى : لو أردنا أن نتخذ ولدا ذا لهو نلهى به ، ومعنى لا تخذناه من لدنا : لا صطفيناه مما نخلق » ص ١٦٣ .

(٢٥) تأويل مشكل القرآن ، ص ١٦٣ .

(٢٦) سورة المسد : ٤/١١١ ، ٥ - وتأويل المشكل : ص ١٥٩ .

(٢٧) سورة يوسف : ٣١/١٢ - وتأويل المشكل : ص ١٨٠ .

(٢٨) تأويل المشكل : ص ٢٧٥ .

(٢٩) تأويل المشكل : ص ٤٣٩ .

ويختلف مع أهل القدر ، الذين ذهبوا فى قوله تعالى : ﴿ يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴾[٣٠] ، إلى أنه على جهة التسمية ، والحكم عليهم بالضلالة والهداية ، ومع الفريق الآخر الذى رأى أن : يضلهم : ينسبهم إلى الضلالة ، ويهديهم ، يبين لهم ويرشدهم ، ويقول ابن قتيبة ، إنهم خالفوا بين الحكمين ، ونحن لا نعرف فى اللغة ، أفعلت الرجل : نسبته ، وإنما يقال إذا أردت هذا المعنى : فعّلت ، تقول : شجعت الرجل ، وجبّنته ، وسرّقته ، وخطّأته ، وكفّرته ، وضلّلته ، وفسّقته ، وفجّرته ، ولحّنته ، وقرىء « إن ابنك سُرِّق »[٣١] ، أى نسب إلى السرق ، ولا يقال فى شىء من هذا كله ، أفعلته ، وأنت تريد نسبته إلى ذلك[٣٢] ويختلف معهم – فيما يختلف – فى قوله تعالى : ﴿ ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين ﴾[٣٣] .

وهو فى كل هذا ، يستند إلى القرآن الكريم ، يستعين به على الإيضاح والتفسير والتأييد ، يقول : و « الحرف » ، يقع على المثال المقطوع من حروف المعجم ، وعلى الكلمة الواحدة ، ويقع الحرف على الكلمة بأسرها ، والخطبة كلها والقصيدة بكاملها ، ألا ترى أنهم يقولون : قال الشاعر كذا فى كلمته ، يعنون فى قصيدته ، والله عز وجل يقول : ﴿ ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾[٣٤] ، وقال : ﴿ وألزمهم كلمة التقوى ﴾[٣٥] ، وقال : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لَهُمُ المنصورون ، وإن جُنْدَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾[٣٦] ، وقال : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ﴾[٣٧] ، أراد سبحانه وتعالى : من الناس من يعبد الله على الخير ، يصيبه من تثمير المال وعافية البدن ، وإعطاء السؤال ، فهو مطمئن مادام ذلك له ، وإن امتحنه الله تعالى باللَّأْوَاءِ فى عيشه ، والضراء فى بدنه وماله كفر به[٣٨] إلى غير ذلك[٣٩] .

---

(٣٠) سورة النحل : ١٦ / ٩٣ ، وسورة فاطر : ٣٥ / ٨ .
(٣١) سورة يوسف : ١٢ / ٨١ .
(٣٢) تأويل المشكل : ص ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٣٣) سورة فصلت : ٤١ / ١١ ، وتأويل المشكل : ص ١١٢ .
(٣٤) سورة التوبة : ٩ / ٣٤ .
(٣٥) سورة الفتح : ٤٨ / ٢٦ .
(٣٦) سورة الصافات : ١٧١ / ١٧٣ .
(٣٧) سورة الحج : ٢٢ / ١١ .
(٣٨) تأويل المشكل : ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٣٩) انظر حديثه عن أصل كلمة « المتشابه » ص ١٠١ ، وكلمة « الوزر » بمعنى : الإثم ، ص ١٤٠ ، وكلمة « اللباس » بمعنى : السكن ، ص ١٤٥ ، وتكون بمعنى : الأثر حين تضاف ، ص ١٦٥ ، وكلمة « قائما » بمعنى : مواظبا بالاقتضاء والمواظبة ، ص ١٨١ ، وكلمة « أذن » بمعنى : الإعلام ، ص ١٨٢ ، وكلمة « ظن » :لليقين وللشك ، ص ١٨٧ ، وكلمة « شرى » بمعنى : باع ، ص ١٨٨ ... الخ .

وهو يستند إلى كلام العرب ، لأن القرآن الكريم جاء موافقا لكلام العرب ، متساوقا مع مذهبهم فى القول ، فالأسود بن يعفر[٤٠] يأتى فى شعره بالمعنى الذى ورد فى قوله تعالى : ﴿ فأصبحوا لا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنهُم ﴾[٤١] ، ولغة بلحرث بن كعب يقولون : مررت برجلان ، وقبضت منه درهمان ، وجلست بين يداه ، وركب عَلَاهُ ، والآية الكريمة فى سورة طه تقول : ﴿ إن هذان لساحران ﴾[٤٢] ، ومن معانى الليل أنه « كافر » ، لأنه يستر بظلته كل شىء ومنه قول لبيد :

يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَواتِرًا فى لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

أى غطاها . والآية الكريمة تقول : ﴿ كمثل غيث أعجب الكفار نباته ﴾[٤٣] ، إنما يريد الكفار ههنا الزراع ، وأحدهم : كافر ، وإنما سمّى كافرا لأنه إذا ألقى البذر فى الأرض كفره ، أو غطاه ،[٤٤] وكانت العرب تسمى الأرض أمّا ، لأنها مبتدأ الخلق ، وإليها مرجعهم ، ومنها أقواتهم ، وقال أمية بن أبى الصلت :

والأرض معقلنا ، وكانت أمّنا فيها مقابرنا وفيها نولـد

وقال اللّه تعالى فى الكافر : ﴿ فأمه هاوية ﴾[٤٥] ، لما كانت الأم كافلة الولد ، وغاذيته ، ومأواه ومربيته ، وكانت النار للكافر كذلك ، جعلها أمه[٤٦] .

وربما جعلت العرب « الاضلال » فى معنى الإبطال والإهلاك ، لأنه يؤدى إلى الهلكة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقالوا : أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد ﴾[٤٧] ، أى : بطلنا وَلَحِقْنا بالتراب ، وصرنا منه ، والعرب تقول : « ضلّ الماء فى اللبن ، إذا غلب اللبن عليه فلم يتبين »[٤٨] ، ويقـول : هـذا مـذهـب العـرب فى « القـدر » ، وهو مذهب كل أمة

---

(٤٠) الأسود بن يعفر ، يكنى أبا الجراح ، وضعه ابن سلام فى الطبقة الخامسة من الجاهليين ، وقال عنه « وكان الأسود شاعرا فحلا » الطبقات ١ / ١٤٣ . تحقيق محمود شاكر .

(٤١) سورة الأحقاف : ٤٦ / ٢٥ ، وتأويل مشكل القرآن : ص ١٠ .

(٤٢) سورة طه : ٢٠ / ٦٣ ، وتأويل مشكل القرآن : ص ٥٠ .

(٤٣) سورة الحديد : ٥٧ / ٢٠ .

(٤٤) تأويل مشكل القرآن : ص ١٥ ، ٧٦ .

(٤٥) سورة القارعة : ١٠١ / ٩ .

(٤٦) تأويل مشكل القرآن : ص ١٠٤ .

(٤٧) سورة السجدة : ٣٢ / ١٠ .

(٤٨) تأويل مشكل القرآن : ص ١٣١ .

من العجم[٤٩] ، وفي موضع آخر يقول : « ومن تتبع هذا من كلام العرب ، وأشعارها ، وجده كثيرا »[٥٠] إلى غير ذلك[٥١] .

ب – اتباع السلف من اللغويين والنحاة والمفسرين :

لم يتخلّف ابن قتيبة عن اتباع السلف الصالح من اللغويين والنحاة والمفسرين ، بلا تحفظ ، أما هؤلاء الذين أعملوا الحيلة في فهم النظم القرآني ، فقد نفر ذوقه من جرأتهم وتجوزهم المقدار ، فنقل عنهم بحذر .

نقل عن الخليل في باب حروف المعاني[٥٢] ، وعن سيبويه[٥٣] ، أما عن الأصمعي فنقل عنه كثيرا ، وعن طريق أبي حاتم السجستاني وحده ، مرات ، ومرة عن غير واحد عن الأصمعي[٥٤] . يقول : حدثني أيضا أبو حاتم عن الأصمعي ، أنه قال في بيت أمرىء القيس :

نَطْعَنُهم سُلْكَى مخلوجـة كَرَّكَ لَأْمِينْ على نابـل[٥٥]

كما ينقل عنه كيف غمض عليه معنى بعض الألفاظ في الشعر[٥٦] ، وتعريفه بـ « ابن أبيض » في شعر جاهلي[٥٧] ، وأنَّ « كَادَ » تأتي « مثناة وجمعا ، ولم يُبنَ منها شيء غير ذلك »[٥٨] ، وأن « ويل » تقبح ، تقول العرب : له الويل والأليل ، والأليل الأنين[٥٩] .

وينقل عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ، معاني الكلمات : « الإقواء »[٦٠] و « روح »[٦١] و « تَغِرَّة »[٦٢] .

---

(٤٩) تأويل مشكل القرآن : ص ١٣١ .
(٥٠) تأويل مشكل القرآن : ص ٢٢١ .
(٥١) انظر الصفحات الآتية ، على سبيل المثال : ٥٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١٠٦ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥٤ .. الخ .
(٥٢) انظر الصفحات : ٥٢٦ (ويكأن) ، ٥٣٢ (مهما) ، ٥٥٧ (هَلُمَّ) .
(٥٣) انظر رأيه في (لات) ص ٥٢٩ ، وفي (سهما) ص ٥٣٢ .
(٥٤) انظر ص ٢٥٧ .
(٥٥) بالهامش : السلكى : الطعنة المستقيمة ، ومخلوجة يمنة يسرة ، وفي الأمثال : الأمر مخلوجة وليس بسلكى ، وكرك : ردك ، ولأمين : سهمين ، واحدهما : لأم ، أي كرك سهمين على رام رمى بهما تعيدهما عليه ، فكذلك : نطعنهم ثم نعود عليهم ، كما يعاد السهمان على الرامي . ص ٩٥ ، ٩٦ من الهامش) .
(٥٦) انظر الصفحات التالية : ٢٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٨ .
(٥٧) تأويل مشكل القرآن : ص ١٤٤ .
(٥٨) تأويل مشكل القرآن : ص ٥٣٤ .
(٥٩) تأويل مشكل القرآن : ص ٥٦١ .
(٦٠) تأويل مشكل القرآن : ص ٢٠ .
(٦١) تأويل مشكل القرآن : ص ٤٨٨ .
(٦٢) تأويل مشكل القرآن : ص ٥٨٤ .

وأن (ما) تُبْدَل بـ « من » فى مثل قوله تعالى : ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾[٦٣] و ﴿ والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سواها ﴾[٦٤] ، وأن معنى « بسم الله » إنما هو « بالله »[٦٥] ، إلى غير ذلك[٦٦] .

وأكثر من النقل عن الفراء ، فى الحذف والإضمار[٦٧] والتعريض[٦٨] ، وفى تفسير حرروف المعانى[٦٩] .

ومن الكوفيين أخذ عن الكسائى مؤيدا[٧٠] ، ثم رافضا رأيا له[٧١] ، ونراه أحيانا لا يسمى أشخاصا ، ويكتفى بقوله « أصحاب النحو »[٧٢] أو « بعض النحويين »[٧٣] أو « رجل من النحويين كان يذهب إلى القدر »[٧٤] ، أو « بعض البغداديين »[٧٥] ، أو « بعض أهل اللغة »[٧٦] ، أو « بعض أصحاب اللغة »[٧٧] ، أو « بعضهم » وقد يكتفى باستعمال مصطلح « الناس » أو « بعض الناس »[٧٩] ، وكأنه يترفع عن ذكر أسمائهم لميولهم المخالفة له .

---

(٦٣) سورة الليل : ٩٢ / ٣ .

(٦٤) سورة الشمس : ٩١ / ٦ ، وتأويل مشكل القرآن : ص ٥٣٣ .

(٦٥) تأويل مشكل القرآن : ص ٢٥٥ .

(٦٦) انظر رأيه فى مجاز ، نصب « والمقيمين » (الأحزاب : ٢٦٣٣) والمشكل ص ٥٣ ، ومجاز قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ (الأنبياء : ٢١ / ٢٧) والمشكل : ص ١٩٧ ، ومجاز قوله تعالى : ﴿ إن العهد كان مسئولا ﴾ (الإسراء : ١٧ / ٣٤) ، والمشكل : ٢٣٠ .

(٦٧) انظر تَفْسِير فى قوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلَّا دعاء ونداء ﴾ (البقرة : ٢ / ١٧١) والمشكل : ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، وتفسيره لقوله تعالى : ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ (يونس ١٠ / ٧١) وشواهد أخرى على الإضمار (ص ٢٢٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨) .

(٦٨) انظر : تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ (سبأ : ٣٤ / ٢٤) ، والمشكل ص ٢٦٩ ، وتفسيره لقوله تعالى : ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ (الليل : ٩٢ / ٣) .

(٦٩) أن « لاجرم » بمعنى : لابد ولا محالة ، ص ٥٥٠ . وتعالى : أصلها عال إلينا وهو العلو ، ص ٥٥٦ ، وأنه لم يسمع من « هات » : هاتيا ، وإنما يقال للواحد والجمع « هات » ، وللمؤنث « هاتى » ، ص ٥٥٥ .

(٧٠) تأويل مشكل القرآن : ص ٥٢ ، ٧١ .

(٧١) تأويل مشكل القرآن : ص ١٢٤ .

(٧٢) تأويل مشكل القرآن : ص ٥٣ .

(٧٣) تأويل مشكل القرآن : ص ٥٥ ، ٢٢٠ .

(٧٤) تأويل مشكل القرآن : ص ١٢٤ .

(٧٥) تأويل مشكل القرآن : ص ٥٣ .

(٧٦) تأويل مشكل القرآن : ص ١٥٤ ، ١٧٢ .

(٧٧) تأويل مشكل القرآن : ص ١٩٩ ، ٢٦٤ .

(٧٨) تأويل مشكل القرآن : ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٧٩) تأويل مشكل القرآن : ص ٢٤ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٩ ، ٣٣٧ ، ٤١٣ .

وفى التفسير احتل ابن عباس مكانا مرموقا ، فكذلك قال ابن عباس – رضى الله عنه[٨٠] – أو قال المفسرون ، دون ذكر أسماء ، وذلك حين يقتبس منهم[٨١] .

وحين يختلف معهم يقول : « بعض المفسرين كان يقول .. »[٨٢] ، أو « قوم من المفسرين يفسرون .. »[٨٣] ، أو « بعضهم » ، أو « من الناس » ، يقصد هؤلاء الذين اختلفوا فى تفسيرهم ما لا يعقل[٨٤] .

ولا ينسى فى خضم هذه النقول ما رواه « خيار السلف »[٨٥] و « أهل السلف »[٨٦] .

ثالثا : التخفف من الالتزام المنهجى بالميل إلى الذوق الخاص :

هكذا يبدو واضحا مدى التزام ابن قتيبة ، ونفور ذوقه من أصحاب الكلام ، لجرأتهم وقلة توقيهم ، فأهل السنة وأصحاب الحديث فى رأيه « اجتماع » و « نظام » و « أنس » و « اتفاق » ، بينما أصحاب الكلام « تشتت » و « تفرق » و « وحشة » و « اختلاف »[٨٧] ، فهو سلفى ، والتقليد عنده « أربح »[٨٨] .

وبالرغم من ذلك ، لم يكن موافقا المفسرين من أهل السنة فى كل ما يذهبون إليه ، ففى سورة الأنبياء ، وفى قوله تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مُغَاضِبًا ، فظن أن لن نقدر عليه ، فنادى فى الظلمات ، أن لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين ﴾[٨٩] ، يرى أن كثيرا من الناس ، قد « استوحشوا من أن يلحقوا بالأنبياء ذنوبا ، ويحملهم التنزيه لهم –

---

(٨٠) تأويل مشكل القرآن : ص ٦٥ ، ٩٩ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٣٥٢ ، ٤٣٠ ، ٥٣٦ .
(٨١) تأويل مشكل القرآن : ص ٢١٠ ، ٢٩٩ ، ٣٢٨ ، ٣٣٤ ، ٣٤٨ ، ٣٤٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٨٧ ، ٣٨٩ ، ٤٨٦ ، ٤٩٩ ، ٥٣٨ ، ٥٤٣ .
(٨٢) تأويل مشكل القرآن : ص ١٤٥ ، ١٥١ ، ٢٠٥ ، ٤٧٥ .
(٨٣) تأويل مشكل القرآن : ص ٣٠٩ .
(٨٤) تأويل مشكل القرآن : ص ٣١٥ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ .
(٨٥) تأويل مشكل القرآن : ص ٢٠٥ .
(٨٦) تأويل مشكل القرآن : ص ٢٦٩ .
(٨٧) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ، ص ٤٣ ، تحقيق إسماعيل الخطيب السلفى الإسعردى ، ط كردستان العلمية ، ١٣٢٦ هـ . تصوير مكتبة المتنبى : القاهرة .
(٨٨) يقول : « إذ الحق إنما يعرف بالقياس والحجة ، وكنت لا تنقاد لهما بالاتباع كما تنقاد بالانقطاع فما تصنع بهما ، التقليد أربح لك ، والمقام على أثر الرسول ﷺ أولى بك » – (تأويل مختلف الحديث : ص ٤٥) .
(٨٩) سورة الأنبياء : ٢١ / ٨٧ .

صلوات الله عليهم - على مخالفة كتاب الله جل ذكره ، واستكراه التأويل ، وعلى أن يلتمسوا لألفاظه المخارج البعيدة بالحيل الضعيفة التى لا تخيل عليهم ، أو على من علم منهم ، أنها ليست لتلك الألفاظ بشكل ، ولا لتلك المعانى بلفق ، كتأويلهم فى قوله تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾[٩٠] ، أى : بشم من أكل الشجرة ، وذهبوا إلى قول العرب ، غوى الفصيل : إذا أكثر اللبن حتى يبشم ، وذلك غَوَى ، بفتح الواو ، يغوى غيا ، وهو من البشم ، وغَوِى ، بكسر الواو ، يغوى ، غوى .... ، ولو وجد أيضا فى « عصى » مثل هذا السنن لركبوه ، وليس فى « غوى » شيء إلّا ما فى « عصى » من معنى الذنب ، لأن العاصى لله التارك لأمره غاوٍ فى حاله تلك ، والغاوى عاص ، والغى ضد الرشد ، كما أن المعصية ضد الطاعة[٩١] .

وكذلك خالفهم فى تفسيرهم حديث رسول الله ﷺ : « نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف ، فاقرءوا كيف شئتم »[٩٢] ، وفى تفسيرهم قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلّا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ﴾[٩٣] ، وتفسيرهم قوله تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾[٩٤] ، و ﴿ ... أو ينفوا من الأرض ﴾[٩٥] ، وفى فواتح السور[٩٦] ، وفى معنى « أو » فى قوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾[٩٧] .

ويتعدى هذا الاختلاف طائفة المفسرين إلى طائفة اللغويين ، فيخالفهم فى أنهم أخذوا على الشعراء المبالغة فى القول ، ونسبوها إلى الإفراط ، وتجاوز المقدار ، ويرى أن هذا جائز حسن على ما بينه من مذاهب العرب فى القول[٩٨] ، وخالف بعض النحاة الذين جعلوا « إلا من ظلم » بمعنى « ولا من ظلم » ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إلا من ظلم ثم بَدَّل حسنا بعد سوء ﴾[٩٩] ، وفى جعلهم اللام فى قوله تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ ، صلة[١٠٠] .

---

(٩٠) سورة طه : ٢٠ / ١٢١ .
(٩١) تأويل مشكل القرآن : ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .
(٩٢) تأويل مختلف القرآن : ص ٣٣ .
(٩٣) سورة آل عمران : ٣ / ٧ ، وتأويل مشكل القرآن : ص ٩٩ .
(٩٤) سورة القلم : ٦٨ / ٩٦ ، وتأويل مشكل القرآن : ص ١٥٦ - ١٦٢ .
(٩٥) من قوله تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فسادا ، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ﴾ (المائدة : ٥/ ٣٣ ، وتأويل مشكل القرآن : ص ٣٩٩ .
(٩٦) وتأويل مشكل القرآن : ص ٤٠٩ .
(٩٧) سورة الصافات : ٣٧ / ١٤٧ ، وتأويل المشكل : ص ٥٤٣ .
(٩٨) تأويل المشكل : ص ١٧٢ .
(٩٩) سورة النمل : ٢٧ / ١١ ، وتأويل المشكل : ص ٢٢٠ .
(١٠٠) سورة البلد : ٩٠ / ١ ، وتأويل المشكل : ص ٢٤٧ .

ونراه يوفق أحيانا بين الآراء[١٠١] ، أو يلتفت إلى وجه لم يلق انتباها كافيا[١٠٢] .

ثم يتيح لنا فرصا نادرة ، يكشف فيها عن ذوقه الخاص غُفْلًا مرة واحدة ، ومعلّلا مرات .

ففى قوله تعالى : ﴿ قل إن كل للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾[١٠٣] ، يقول : بعد أن يفسرها – قال مجاهد : يريد إن كان لله ولد فى قولكم ، فأنا أول من عبد الله وحده ، وكذبكم ، **وبعض المفسرين** يجعل « إن » بمعنى « ما » ، وليس يعجبنى ذلك[١٠٤] .

والتفسير الذى قبله هنا ، يتصل بوضوح العبارة ، كأنه يستجيب لرأى المنهج اللغوى ، بينما يعتمد التفسير الآخر على القطع والاستئناف ، بجعل الفاء بمعنى الواو ، وعلى تغيير نبرات الصوت لتأدية المعنى الأول المستقل ، ثم الانتقال إلى المعنى الآخر ، المستأنف ، مع الإحساس بالمعنى العام الذى يجمعهما .

وفعل ذلك مع قوله تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شيء ، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يوقنون ﴾[١٠٥] ، فيفسر « الذى » بمعنى « من » على أن المعنى « تماما على من أحسن » ، ولا يقبل ذوقه التأويل الآخر ، الذى يذهب إلى أن « الذى » بمعنى « ما » ، أى : « آتينا موسى الكتاب تماما على ما أحسن من العلم والحكمة ، وكتب الله المتقدمة قائلا : والتأويل الأول أعجب إلىّ ، لأنه فى مصحف عبد الله ، « تماما على الذين أحسنوا »[١٠٦] .

فرسم الآية فى مصحف عبد الله جعله يميل إلى التأويل الأول ، وسبق أن أشرنا إلى ذلك فى مطلع كتابه ، حين تصور أن قائلا ، قال : فهلا يجوز لنا أن نقرأ بجميع هذه الوجوه ؟ قيل له : كل ما كان فيها موافقا لمصحفنا ، غير خارج من رسم كتابنا ، جاز لنا أن نقرأ به ، وليس لنا ذلك فيما خالفه[١٠٧] .

وفى قوله تعالى : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾[١٠٨] ، يقول : أى أشار

---

(١٠١) انظر الصفحات : ٦٦ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ، ١٦٣ .
(١٠٢) انظر الصفحات : ٦٩ ، ٧٦ ، ٩٨ ، ٢٣٧ ، ٢٦٩ ، ٤٣٧ .
(١٠٤) سورة الزخرف : ٤٣ / ٨١ .
(١٠٤) تأويل المشكل : ص ٣٧٣ .
(١٠٥) سورة الأنعام : ٦ / ١٥٤ .
(١٠٦) وتأويل مشكل القرآن : ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ .
(١٠٧) تأويل مشكل القرآن : ص ٤٢ .
(١٠٨) سورة مريم : ١٩ / ١١ .

إليهم وأومأ ، وقال بعض المفسرين : « كتب إليهم » ، ونراه لا يميل إلى هذا التفسير ، فالتفسير الأول أعجب إليه ، ذلك لأنه سبحانه وتعالى قال فى موضع آخر : ﴿ آيتك ألا تكلم الناس إلّا رمزا ﴾[١٠٩] والرمز : تحريك الشفتين أو الحاجبين ، ولا يكون كتابا[١١٠] .

والذى حرّك ميله هنا حسّه اللغوى ، فالوحى رمز ، والرمز لا يكون بالكتابة ، والقرآن الكريم يفسر بعضه بعضا .

وبالرغم من غلبة المنهج اللغوى على ذوق ابن قتيبة ، إلّا أننا لا نعدم أن نراه يكشف عن حسّ أدبى ، بدأ فى موقعه من تفسير قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا ﴾[١١١] ، يقول : هذا مثل ضربه الله لنفسه ، ولمن عُبِدَ دونه ، فهذا « مثل من جعل إلها دونه أو معه » ومن رزقناه منا رزقا حسنا ، فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون ؟ « فهذا مثله جل وعز ، لأنه الواسع الجواد القادر الرازق عباده جهرا من حيث يعلمون ، وسرا من حيث لا يعلمون ، وقال بعض المفسرين : هو مثل للمؤمن والكافر ، فالعبد هو الكافر ، والمرزوق : هو المؤمن[١١٢] ، والتفسير الأول أعجب إلىّ ، لأن المثل توسط كلامين ، هما لله تعالى : أما الأول فقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض ولا يستطيعون ﴾[١١٣] . فهذا لله ومن عبد من دونه ، وأما الآخر ، فقوله بعد انقضاء المثل : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[١١٤] ، ولأنه ضرب لهذا المعنى مثلا آخر ، بعقب هذا الكلام ، فقال : « وضرب الله مثلا رجلين : أحدهما أبكم (أخرس) ، لا يقدر على شىء ، وهو كَلٌّ على مولاه ، (أى : عيال ، وثقل على قرابته ووليه) ، أينما يوجهه لا يأت بخير » ، ثم قال : « هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم »[١١٥] ، فجعل هذا المثل لنفسه[١١٦] .

---

(١٠٩) سورة آل عمران : ٣ / ٤١ .

(١١٠) وتأويل مشكل القرآن : ص ٤٨٩ .

(١١١) سورة النحل : ١٦ / ٧٥ .

(١١٢) فى هامش الصفحة : « قال بهذا ابن عباس ، وقتادة ، وقال الطبرى فى تفسيره ١٤ / ٩٩ » ، يقول تعالى ذكره : شبه الله لكم شبها أيها الناس للكافر من عبيده ، والمؤمن منهم ، فأما مثل الكافر ، فإنه لا يعمل بطاعة الله ، ولا يأتى خيرا ، ولا ينفق فى شىء من سبيل الله ماله ، لغلبه خذلان الله عليه ، كالعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء فينفقه ، وأما المؤمن بالله ، فإنه يعمل بطاعة الله ، وينفق فى سبيله ماله ، كالحر الذى آتاه الله مالا ، فهو ينفق منه سرا وجهرا ، يقلو : بعلم من الناس ، وغير علم « هل يستوون » ؟ ، يقول : هل يستوى العبد الذى لا يملك شيئا ولا يقدر عليه ، وهذا الحر الذى رزقه الله رزقا حسنا ، فهو ينفق كما وصف ؟ ، فكذلك لا يستوى الكافر العامل بمعاصى المخالف لأمره ، والمؤمن العامل بطاعته .. » .

(١١٣) سورة النحل : ١٦ / ٧٣ .

(١١٤) سورة النحل : ١٦ / ٧٤ .

(١١٥) سورة النحل : ١٦ / ٧٦ .

(١١٦) وتأويل مشكل القرآن : ص ٣٨٥ .

فالذوق الأدبى هنا ، أحسّ جمال السياق ، وأن التفسير الآخر يقلل من تدفق المعانى ، وانسياق الخيال ، وراء المقارنة المضروب لها هذا المثل ، ويأتى التكرار بضرب مثل آخر ، ليكمل بقية زوايا الصورة .

وكان التفاته إلى السياق هنا ، فَلْتَةً ذوقية ، ومما يؤسف له أنها لم تطرد مع النظم القرآنى بوعى تام . ولكنّا لا نعدم أن نراها فى فصله الذى عقده فى باب « اللفظ الواحد للمعانى المختلفة » ، وكأنه لا يدخل فى صميم « تأويل مشكل القرآن » ، ومثال واحد يعنينا ، يقول فى لفظ « القضاء » : أصل قضى : حتم ، كقوله عز وجل : ﴿ فيمسك التى قضى عليها الموت ﴾[١١٧] ، أى حتمه عليها ، ثم يصير الحتم بمعان ، كقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾[١١٨] ، أى : أمر ، لأنه حتم بالأمر ، وكقوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب ﴾[١١٩] ، أى : أعلمناهم ، لأنه لما خبّرهم أنهم سيفسدون فى الأرض ، حتم بوقوع الخبر ، وقوله تعالى : ﴿ فقضاهن سبع سموات ﴾[١٢٠] ، أى صنعهن ، وقوله : ﴿فاقض ما أنت قاض﴾[١٢١] ، أى : فاصنع ما أنت صانع ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلىّ ﴾[١٢٢] ، أى : اعملوا ما أنتم عاملون ولا تنظرون ، قال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قضاهما داود ، أو صَنَعُ السوابغ تُبَّعُ[١٢٣]

أى : صنعهما « داود » و « تبع » وقال الآخر : فى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

قضيت أمورًا ثم غادرت بعدها بوائج فى أكمامها لم تفتق[١٢٤]

أى عملت أعمالآ ، لأن كل من عمل عملاً وفرغ منه فقد حتمه وقطعه ، ومنه قيل

---

(١١٧) سورة الزمر : ٣٩ / ٤٢ .
(١١٨) سورة الاسراء : ١٧ / ٢٣ .
(١١٩) سورة الاسراء : ١٧ / ٤ .
(١٢٠) سورة فصلت : ٤١ / ١٢ .
(١٢١) سورة طه : ٢٠ / ٧٢ .
(١٢٢) سورة يونس : ١٠ / ٧١ .
(١٢٣) بالهامش ص ٤٤١ – مسرودتان : درعان ، قضاهما : فرغ منهما داود النبى – عليه السلام – أو صنع السوابغ ، الصنع : الحذق بالعمل ، ثم ردّ « تبعا » على « صنع » ، وفى الموضع الأول من اللسان : « سمع أن داود ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، كان سخّر له الحديد ، فكان يصنع منه ما أراد ، وسمع أن تُبَّعًا عملها ، وكان تُبَّعُ أمر بعملها ولم يصنعها بيده ، لأنه كان أعظم شأنا من أ يصنع بيده ، والتابعة : ملوك اليمن ، وأحدهم : تّبع ، سموا بذلك لأنه يتبع بعضهم بعضا ، كلما هلك واحد قام مقامه آخر ، تابعا له مثل سيرته » .
(١٢٤) بالهامش ، بعد تحقيق نسبته : البوائج : جمع بائجة ، وهى الداهية ، ص ٤٤٢ .

للحاكم : قاض ، لأنه يقطع على الناس الأمور ، ويحتم ، وقيل : قضى قضاؤك ، أى فرغ من أمرك ، وقالوا للميت : قد قضى ، أى فرغ .

وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد(١٢٥) .

فالسياق هنا هو الذى فَتَّقَ معنى اللفظ ، بالرغم من التزامه بمادة اللفظ ، وجعله المحور الذى يدور حوله السياق ، بعيدا عن العلاقات الجمالية التى يمكن أن تتولد من وجود اللفظ فى معية ألفاظ أخرى ، بعيدا عن ارتباط المعنى بالسياق العام ، لا بالسياق الجزئى فى الجملة .

وقد أعد ابن قتيبة نفسه إعداداً خاصا ليتذوق النظم القرآنى تَذَوُّقَ البصير ، تتلمذ لعلماء متمكنين فى علوم القرآن والعربية ، وتثقف فشعّب ثقافته ، واستمر ملازما للنظم القرآنى ، يتدارسه ويذود عنه ، سنين عددا ، فصار محيطا بخصائصه قادرا على تذوقه ، يفضل العبارة الواضحة على غيرها ، ويركن إلى التأويل المسند بدلا من الاجتهاد المفرد ، ويستفتى المعنى اللغوى فى الحكم ، ثم يلتفت إلى جمال السياق .

تربى تذوق ابن قتيبة فى البيئة اللغوية الفقهية ، فجاء يحمل صفة التحرر ولكن فى ضوء ما يسمح به الالتزام المنهجى اللغوى .

---

(١٢٥) وتأويل مشكل القرآن : ص ٤٤١ ، ٤٤٢ .